

فالواحد منا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الثروة أو الجاه .  
نصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية في أي منا : وقد تُسلب ممن فاء  
الله عليه بها : ولذلك يصبح من اللائق أن يتواضع كل منا ، وأن  
يستحضر ربه ، وأن يتضائل أمام خالقه .

فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق في التكبر : وهو سبحانه  
الذي تبلغ صفاته ومقاماته منتهى الكمال ، وهي لا تزول عنه أبداً .  
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ  
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (٦٢)

وساعة نرى ﴿ لا جرم ﴾<sup>(١)</sup> « فمعناها أن ما يأتي بعدها هو حق  
ثابت ، فـ « لا » نافية ، و « جرم » مأخوذة من « الجريمة » ، وهي  
كسر شيء مؤمن به لسلامة المجموع . وحين نقول « لا جرم »  
أي : أن ما بعدها حق ثابت .

وما بعد ﴿ لا جرم ﴾ هنا هو : أن الله يعلم ما يُسِرُّون وما  
يُعلنون .

وكل آيات القرآن التي ورد فيها قوله الحق ﴿ لا جرم ﴾ تؤدي  
هذا المعنى ، مثل قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ (٦٢)

[النمل]

(١) لا جرم : قال الفراء : هي في الأصل بمعنى لا بد ولا محالة . ثم كثرت فعولت إلى معنى  
القسام وصارت بمعنى خطأ [ المصباح المنير ص ٥١ ] .

(٢) مُفْرَطُونَ : متروكون مسيون في النار قال مجاهد . وقال مجاهد : مجنونون . وقال قتادة  
والسمن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . [ تفسير القرطبي ٢٨٢٦/٥ ] .

وكذلك قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٠٩)

[النحل]

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ يحمل معنى « لا بُدَّ » ، وهذا يعنى أن قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. ﴾ (١٢٢)

[النحل]

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ ، ولا مناص من أن الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حُلَّ الطَّعْمُ اللَّفْظُ لِيَصِلُوا إِلَى أَدَقِّ اسْرَارِهِ .

وعلم الله لا ينطبق على الجَهْرِ فقط ، بل على السِّرِّ أيضاً ؛ ذلك أنه سيحاسبهم على كُلِّ الأَعْمَالِ . ويُنْهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (١٢٣)

[النحل]

وإذا سألنا : وما علاقة علم الله بالعقوبة ؟ ونقول : ألم يقولوا في أنفسهم :

﴿ لَوْلَا يَعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴾ (٨)

[المجادلة]

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه ليُخْبِرَهُمْ بِمَا قَالُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبْلِغُهُمْ صَادَقٌ فِي الْبِلَافِ عَنْ اللَّهِ ، ورغم ذلك فقد استكبروا ؛ وتَأَبَّأُوا وَعَانَدُوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ  
قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤)

وقوله الحق :

﴿مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ .. (٢٤)﴾

[التحل]

يُوضِّح الاستدراك الذي أجراه الله على لسان المُتَكَلِّم : ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين بربٍّ ، لا علموا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً . وهذا دليل على إيمانهم بربٍّ خالق ؛ ولكنهم يعترضون على محمد ﷺ وما أنزل إليه من الله .

و :

﴿قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤)

[التحل]

والأساطير : هي الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لما أقرُّوا بالالوهية ، ورفضوا أيضاً القول المنزل إليهم .  
ومنهم من قال :

﴿قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْثَرُهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَمِيلًا﴾ (٥)

[الفرقان]

(١) الأساطير : جمع أسطورة وهي الأحاديث التي لا أصل لها . أو هي جمع أسطار أو جمع سطر : أي كتابات ونظمت على النماذج منها . [ القاموس القويم ٢٦٣/١ ] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سياقاً تبياناً  
من بعد ذلك ، وهم الجانب المضاد لهؤلاء ؛ حيث يقول الحق  
سبحانه :

﴿ رَقِيبٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ  
الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ﴾ (٣١)

وراء ذلك قصة توضح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ،  
وفريق كافر .

نحين دعا رسول الله ﷺ قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد  
الذي أنزل عليه منهجاً في كتاب مُعْجَز ، بدأت أخبار رسول الله ﷺ  
تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلُّ قبيلة وفداً منها  
لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفَّار قريش أرادوا أن يصدّوا عن سبيل الله ؛ فقسّموا  
أنفسهم على مداخل مكة الأربعة . فإذا سألهم سائل من وفود القبائل  
« ماذا قال ربكم الذي أرسل لكم رسولاً ؟ » .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذي يستقبلهم : « إنه رسول كاذب ،  
يُجَرِّفُ وَيُجَدِّفُ <sup>(١)</sup> » . والهدف طبعاً أن يصدّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين  
على أبواب مكة من الوفود التي جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا  
أنزل ربكم ؟ يردون « إنه يُرَدُّ أساطير الأولين » .

(١) التجديف : هو الكفر بالنعم . جدّف الرجل بنعمة الله : كفرها ولم يقنع بها . قال أبو عبيد  
يعني كل من النعمة واستقلال ما أنعم الله عليك . [ لسان العرب - مادة : جدف ] .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدل على أنها إجابة مُتفق عليها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أن يَصْرِفُوا وُلُودَ الْقِبَاةِ عَنْ الاسْتِمَاعِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَبَّهُوا الذِّكْرَ الْمُعْزَلَّ مِنْ اللَّهِ بِمَثَلِ مَا كَانَ يَرَوِيهِ لَهُمْ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - النَّضْرُ ابْنُ الْحَارِثِ مِنْ قِصَصِ الْقِدَمَاءِ الَّتِي تَتَشَابَهُ مَعَ قِصَصِ عَنَتْرَةَ ، وَأَبَى زَيْدِ الْهَلَالِيِّ الَّتِي قُرِئَتْ فِي قُرْآنَا ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَوْقِعَةُ الْأُولَى فِي الْأَخْذِ وَالرَّدِّ .

وَيُعْتَبَرُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَى قَوْلِهِمْ هَذَا :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُّونَ ﴾ (٢٥)

وانظر إلى قوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً .. ﴾ (٢٥)

[النحل]

لنرى كيف يُوَضِّحُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ لَهَا أَحْوَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ ؛ وَإِذَا أَسْرَفَتْ عَلَى نَفْسِهَا فِي تِلْكَ الْجَوَانِبِ ؛ فَهِيَ قَدْ تُسْرِفُ فِي الْجَانِبِ الْأَخْلَاقِيِّ ؛ وَالْجَانِبِ الْاجْتِمَاعِيِّ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَتَأْخُذُ وَزْرَ كُلِّ مَا تَفْعَلُ .

وَيُوضِّحُ هَذَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَيْضاً أَنَّ تِلْكَ النَّفْسَ الَّتِي تَرْتَكِبُ الْأَوْزَارَ حِينَ تُضِلُّ نَفْسًا غَيْرَهَا فَهِيَ لَا تَتَحَمَّلُ مِنْ أَوْزَارِ النَّفْسِ الَّتِي أَضَلَّتْهَا إِلَّا مَا نَتَجَّ عَنْ الْإِضْمَالِ ؛ فَيَقُولُ :

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ (٢٥) [التحل]

ذلك أن النفس التي تمّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أن يحمل حتى الضِّل أوزاراً لم يكن هو السبب فيها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ (٢٥) [التحل]

أي : أن المُضِلَّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلهم ؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفي هذا مُطلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تمّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات ؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال ؛ وتلك يعملها معهم مَنْ أضلّوهم .

أما الأوزار والسيئات التي ارتكبوها بأنفسهم دون أن يدفعهم لذلك مَنْ أضلّوهم ؛ فهم يتحملون تبعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كلُّ إنسان أحمال الذنوب التي ارتكبها .

وقد حسم رسول الله ﷺ ذلك حين قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له وُعَاء ، أو بقرة لها خُوَار ، أو شاة تَعِير<sup>(١)</sup> » .

وقس على ذلك من سرق في الطوب والاسمنت والحديد وخدع

الناس .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٣٢) . والبخاري في صحيحه (٢٥٩٧) من حديث أبي حميد الساعدي . ومعنى تَعِير أي : تصبح ، والخرار صوت البقرة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٧٥)﴾ [النحل]

إنما يلغتنا إلى ضرورة ألا نلهينا الدنيا عن أهم قضية تشغل بال الخليقة ، وهي البحث عن الخالق الذي أكرم الخلق ، واعد الكون لاستقبالهم .

وكان يجب على هؤلاء الذين سمعوا من كفار قريش أن يبحثوا عن الرسول ، وأن يسمعوا منه ؛ فهم أميون لم يسبق أن جاءهم رسول ؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ إِلَّا أَنبَاءُ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)﴾

[البقرة]

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهم أن يبحثوا ، وأن يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار ؛ ولذلك سيعاقبهم الله ؛ لأنهم أمموا قضية الدين ، ولكن العقوبة الشديدة ستكون لمن كان عندهم علم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. (٧٩)﴾ [البقرة]

ويصف الحق سبحانه من يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار من أضلّوهم :

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٧٥)﴾ [النحل]

أي : ساء ما يحملون من اثم ؛ فهم لم يكتفوا بأوزارهم ، بل

## سُورَةُ النِّجَالِ

٧٨٦٩

صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَنْعُوا الْغَيْرَ أَنْ يَسْتَمَعَ إِلَى قَضِيَةِ الْإِيمَانِ .  
ومن نتيجة ذلك أن يبيع مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً مما حرم  
الله ؛ فيتحمل مَنْ صدَّهم عن السبيل وزر هذا الإضلال .

وإذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« هَرَكَمَ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا ؛ وَهَرَكُ مِنْهُ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا  
غَيْرِهِ » <sup>(١)</sup> .

فَمَنْ بَاعَ لِلدِّينِ لِيَتَمَتَّعَ قَلِيلاً ؛ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ ؛ أَمَا مَنْ بَاعَ دِينَهُ  
لِيَتَمَتَّعَ غَيْرُهُ فَهُوَ الَّذِي سَيَجِدُ الْعِقَابَ الْأَشَدَّ مِنْ اللَّهِ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ بِئْسَ نَتِجَتُهُمْ  
مَنْ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ  
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup>

ويأتى الحق سبحانه منا بسيرة الأولين والسنن التى أجزاها  
سبحانه عليهم ، ليسلى رسوله ﷺ ؛ ويوضح له أن ما حدث معه  
ليس بدعاً ؛ بل سبق أن حدث مع مَنْ سبق من الرسل . ويبلغه أنه

(١) أخرج مسلم فى صحيحه ( ١٦٨ ) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ  
قال : « يَدْرُوا بِالْأَعْمَالِ فَتَنَّا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ ، يَصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ كَافِرًا ، أَوْ  
يَمُوتُ مُؤْمِنًا وَيَصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا » وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى  
« دم الدنيا » أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : « الخاسر من بَرَّ دِينَهُ بِخَرَابِ آخِرَتِهِ .  
والخاسر من اسْتَصْلَحَ مَعْلَفَتَهُ بِفَسَادِ دِينِهِ . والمغيبون حثلاً من رَضِيَ بِالدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ » .

(٢) خَرَّ : سَقَطَ مِنْ حُلُوٍّ إِلَى سَفَلٍ بِصَوْتٍ . وَخَرَّ الْبِنَاءُ : سَقَطَ . [ لسان العرب - مادة  
خَرَر ] .

(٣) مَنْ هَوَّاهُمْ : أَى عَلَيْهِمْ رَقَعَ وَكَانُوا تَحْتَهُ فَهَلَكُوا وَمَا أَفْلَتُوا . [ تفسير القوطى ٥ / ٢٨٢٢ ] .



لم يبعث أى رسول إلا بعد تعمّ البلوى ويطم الفساد ، ويفقد البشر  
المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد من يؤمنون ويعملون الصالحات ،  
ويتواصون بالحق وبالصبر .

والمثل الواضح على ذلك ما حدث لبنى إسرائيل : الذين قال فيهم  
الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ .. ﴾ (٧٩)

[الاعادة]

فانصب عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كل أمة لا تتقاهى عن  
المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (٧٦)

[النحل]

والمكر تبين خفى يبينه الماكر بما يستر عن المتكور به . ولكن  
حين يعكر أحد بالرسول : فهو يمكر بمن يؤيده الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم الله رسوله بالمكر : فهو يلقى كل أثر لهذا التبيين :  
فقد علمه من يقدر على إبطاله . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴾ (٧١)

[المجادلة]

وهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِمَآدِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧٩) **إِنَّهُمْ لَهُمُ**  
**الْمَنْصُورُونَ** (١٧٧)

[الصفات]

وطبق الحق سبحانه ذلك على رسوله ﷺ : حين مكر به كفار  
قريش وجمعوا شباب القياش ليقتلوه : فأغشاهم الله ولم يبصروا



﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ  
 كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ  
 الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧)

ومكذا يكون العذاب في الدنيا وفي الآخرة ، ويلقون الخزي يوم  
 القيامة . والخزي هو الهوان والمذلة ، وهو أقوى من الضرب  
 والإيذاء ؛ ولا يتجلد أمامه أحد ؛ فالخزي تشعيرية تفتش البدن ؛ فلا  
 يفلت منها من تصيبه .

وإن كان الإنسان قادراً على أن يكتم الإيلام ؛ فالخزي معنى  
 نفسي ، والمعاني النفسية تنضج على البشرية ؛ ولا يقدر أحد أن يكتم  
 أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التي عاش بها ذلك الذي بيئت ومكر .

ويوضح الحق سبحانه هذا المعنى في قوله عن القرية التي كان  
 يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بآنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً <sup>(١)</sup> كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا <sup>(٢)</sup> مِنْ  
 كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا  
 يَعْتَدُونَ ﴾ (١١٢)

[النحل]

(١) أخزاه : أهانه وفضحه . [ القاموس القويم ١/١٩٢ ] . يخزيهم : أي يفضحهم بالعذاب  
 ويذلهم به ويهينهم ، قاله القرطبي في تفسيره ( ٢٨٢٢/٥ ) .

(٢) تضائون : تخالفون وتعادون وتحاربون . [ لسان العرب - مادة : شقق ] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التي نقلها ابن كثير في تفسيره ( ٥٨٩/٢ )  
 والقرطبي ( ٢٩٢١/٥ ) وساق القرطبي قولاً عاماً أنها أي قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغَدَ العيش : اتسع وطاب . وقال تعالى : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴾ (٣٦) [البقرة]  
 أي : اكلاً طيباً مَوْسَعاً عليكم فيه . [ القاموس القويم ١/٢٦٩ ] .

أى : كان الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكان الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعانى منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه ورجله وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخزي فكلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبره وغروره باقٍ ، وله ما يستد .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ (٢٧)

[النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّةً ، وجعلتم من المؤمنين شُقَّةً أخرى ، وكلمة ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شقَّ الجدار أو شقَّ الخشب » والمقصود هنا أن جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شُقَّةٍ تُعادونها ، وأخذتم جانب الباطل ، وتركتم جانب الحق .

ومنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٨)

[النحل]

وكان هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مَكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين آتاهم الله العلم .

والعلم - كما نعلم - يأتى من الله مباشرة ؛ ثم يُنقل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسل إلى الأمم التى كُلِّفَ الحق سبحانه رسالته أن يُبلِّغهم منهجه .

وَكَمَا شَهِدَتْ الدُّنْيَا سَقُوطَ الْمَظَاهِجِ الَّتِي اتَّبَعُوهَا مِنْ أَهْوَاتِهِمْ ،  
وَسَقُوطَ مَنْ عَبَدُوهُمْ مِنْ نَوْنِ اللَّهِ سَيَشْهَدُ الْيَوْمَ الْآخِرَ الْخَزْيَ وَالسُّوْءَ  
وَهُوَ يَحِيطُ بِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُ الْخَزْيُ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ ، وَيَحْصِي  
اللَّهُ مَنْ آمَنُوا بِهِ بِالْأَمْتَيْنِ .

وَنَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ قَالَ : « أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ، اللَّهُمَّ  
فَاشْهَد » <sup>(١)</sup> .

وَكَمَا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ أَمَتَهُ وَاسْتَجَابَتْ لَهُ : فَقَدْ طَلَبَ مِنْهُمْ أَيْضًا أَنْ  
يَكُونُوا امْتِدَادًا لِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْ يُبَلِّغُوهَا لِلنَّاسِ . ذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ  
قَدْ مَنَعَ الرِّسَالَاتِ مِنْ بَعْدِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَصَارَ  
مِنْ مَسْئُولِيَةِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تُبَلِّغَ كُلُّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ رِسَالَةُ  
الرَّسُولِ ﷺ .

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « نَضَرُ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها ، وَأَدَّاعَهَا إِلَى  
مَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، قَرِيبٌ مُبَلِّغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » <sup>(٢)</sup> .  
وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِلُ <sup>(٣)</sup> :

(١) وَرَدَ هَذَا الْقَوْلُ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنْهَا حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي  
صَحِيحِهِ ( ٢٧٨ ) قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَدَّ ظَهْرَهُ إِلَى قَبَةِ أَدَمَ ، فَقَالَ : أَلَا  
لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ . اللَّهُمَّ عَلِّمْ بَلَغْتَ ؟ اللَّهُمَّ اشْهَد .  
(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ ( ٤٢٧/١ ) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ ( ٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨ ) وَابْنُ مَاجَةَ  
فِي سُنَنِهِ ( ٢٢٢ ) وَالْحَمِيدِيُّ ( ٤٧/١ ) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ .  
(٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَقْرَأَ عَلَىَّ . فَقُلْتُ :  
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَقْرَأَ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَتَزَلُّ . قَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ غَيْرِي . فَقَرَأْتُ  
سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَكُفُّوا إِنْ جِئْتُمْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى  
ثَلَاثَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [النَّسَاءُ] فَقَالَ : « حَسْبُكَ الْآنَ » . فَإِذَا عَيْنَاهُ تَقَرَّفَانِ . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ  
فِي صَحِيحِهِ ( ٥٠٥٠ ) . وَكُنَّا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ( ٨٠٠ ) كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَلَفْظُهُ  
« رَفَعْتَ رَأْسِي لَوْ خَرَزْتَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي قَرَفَعْتَ رَأْسِي فَرَأَيْتَ دُمُوعَهُ ﷺ تَصِيلُ » .